قصص قصيرة

قبل خراب البصرة

عبد الستار ناصر

إلى محسن اطميش... ومتى شئتَ سنلتقي

على باب اللّه، ومن مال اللّه، عبْر دربٍ يتموّج من «الأزبكية» حتى «الحسين»، وليس من أحد يمدّ أصابعَه إلى جيبه؛ ذلك أنّ القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، بينما الموائد في رمضان عامرةٌ بالكَرَم: كشري وباذنجان ملفوف وطعميّة بالبيض ورزّ بلبن وأجنحة حمام وشطّة لا مثيل لها سوى الرمضاء.. والصباح بعيدٌ ما دام «مقهى الفيشاوي» مفتوحاً حتى بعد منتصف «الفرفشة».

«خان الخليلي» أيضاً على باب اللّه، لا تغلقه العسسُ ولا المظاهراتُ، وكذلك الحال مع «شارع المتنبي» الذي يغلق فوراً إنْ أراد ذلك شرطيّ واحد. المهمّ، أنّ باب اللّه مفتوح في النهار وفي الليل.. وبالتالي، فهو لا يشبه «باب اللوق» ولا باب الشيخ، إذا ما أراد أيُّ كلبٍ معتوه أن يسرح ليلاً أو يمرح عند أبواب الفجر.

كنا نتذكّر أنّ السماء زرقاء، أو هكذا قال ميسورُ الحال «السيد سيد عبد النبي» المدفونُ حالياً في الجُبّ الملاصق لقبر الإمام (الفارع الطول) عليه السلام، الذي يأتيه الزوار المسلمون والسيّاح من كازاغستان والبصرة وكشمير يلطّخون ثيابهم بترابه المقدّس ناذرين له الذهبَ والأولاد، شرط أن يرتاح القلبُ بين الضلوع أو ترتاح الضلوعُ بين طيات الجسد الحزين، وكلهم ـ اغنياء وأغبياء، فقراء ومهاجرين ـ على باب اللّه، لا أحد يلتفت إليهم، ولاسيما أنّ المطارات الكبرى صارت تزدحم بقرّاء الطالع والبصّاصين الذين تستأجرهم الحكوماتُ الوطنيةُ لمعرفة المواطن الذي شبّ عن طوقهم الذهبيّ.. والمطارات الكبرى ـ أيضاً ـ على باب اللّه، خوفاً من طبقات السماء السبع.. حتى إذا ما هبطتْ طائراتُهم العملاقة، صار «مال اللّه» في قعر البنوك، وأغلقوا باب اللّه عليه؛ ذلك أنّ الدولار الأزرق ينفع حتماً في اليوم الأخرق.

لذلك، وقبل خراب البصرة ـ كما يقال في أحاديث الأوّلين ـ جاءنا مَنْ يحكي عن حربٍ تستمر عشرة أيام، ستأكل اليابسَ والأخضرَ، تُحرق السفنَ وتُشعل النارَ فوق السواتر وتقطع الجسورَ وتُضرِم الحرائقَ في البيوت والأزقّة والبارات (ربما لهذا السبب وقبل نشوب الحرب أغلقوا البارات لئلا تحترق). وكنا، ربما من فرط ما نحْن فيه من خير وعبقرية وأمان، نضحك من هذا الرجل الذي قال إنّ الحرب قد تطول أكثر من تسعة أيام، وإنّها ستأخذ في طريقها المظلِم كلَّ ما تعبنا من أجله طوال خمسين سنة من الخير الطافح والنضال والقراءة والكتابة ودخول المعتقلات. ولأننا لا نصدّق الطالع ولا نؤْمن بقراءة الفنجان ولا نفهم من الحروب غيرَ ما جرى لسوانا، رحنا نصرخ بصوت واحد:

ـ إنّه محضُ رجلٍ يريد كسرةَ خبزٍ وكفى، أَعْطُوه من مال اللّه، وليذهبْ فوراً لئلا نهشّم رأسَه.

إذْ من غير المعقول ـ في حسابات العساكر والمعلّمين والساسة والمهندسين وأساتذة الطب وعمالقة الفكر والفلسفة واللاّهوت ـ أن تأتي على ديارنا حربٌ يُمْكنها أن تُشْعل الحرائقَ في حياتنا طوال عشرة أيام كما يقال..

ذلك أنّ الحروب في نهايات القرن العشرين ـ كما نعلم ـ لا يمكن أن تأخذ من الظالم أو المظلوم أكثرَ من خمسة أيّام أو سبعة في أعظم حساباتنا وأسوإ تكهناتنا (ومَنْ ترانا سنحارِب، إذا كان الخيرُ لحاقَنا والنعيمُ فراشَنا والليالي متعةَ كلِّ فردٍ منا)؟

وعند باب اللّه ومن مال اللّه، قبل أن نعطيه كسرةَ خبزٍ ودرهماً واحداً، كان صاحبُنا قد اختفى.. وعدنا إلى بيوتنا، نضحك من حماقة هذا الغريب الأشعر، وعند كل مساءٍ نَمْضي إلى مقهانا نلعب الدومينو ونشرب الشاي المغمّس بالهال، نَضْحك ثانيةً ونَسْخر من أكبر كذبةٍ سمعناها طوال ما فات من أعمارنا.

وبينما «حيّ الحسين» ما يزال يسهر حتى الفجر، كان مقهى الفيشاوي يزدحم بالشعراء وباعة المجد والمجانين وباعة السجائر والمأخوذين بالشهرة وباعة الكتب المشّائين الذين يقطعون شوارعَ السيدة زينب وسوقَ الموسكي حتى بوابة الأزهر.. رحنا نلتهم الطعميّة والفولَ المدمّس مع الدخان.. نتذكر أنّ المقاهي في بغداد ربما نامت منذ سبع ساعات ولن تصحو قبل أذان المغرب.. نجلس في دائرة من الحشيشة المغطّاة بالتبغ المعسّل خوفاً على إحساس الناس من «خطيئةٍ» تجيء سهواً في ذلك الشهر المبارك.. نصحو بعد كل رشفة من ذلك الدخان الثمين، ثم نغفو كما العصافير، نسمع «يا مالكاً قلبي» وما مِنْ أحد يملكنا أو يتحكّم فينا. كما التلاميذ ـ كنّا ـ أكثر براءةً من ثيابنا التي نسينا أن نغسلها في الصباح. هل انتهى رمضان؟ أم كنا يومها ننتظر عندما رحتُ أسمع ذلك الطفل يحمل الجرائد أعلى رأسه ويصرخ:

ـ الحرب قامت، طهران تحارِبُ العرب.. اقرأ: **الجمهورية، الأهرام، أخبار اليوم**، الحرب قامت يا ناس.

لا أتذكر حينَها غيرَ «محسن اطيمش» وهو يشتري الجرائدَ كلَّها، ويقول برجفةٍ لا تتكرر في العمر سوى مرة واحدة:

ـ سنعود إلى الشقة فوراً، أريد أن أسمع الأخبار.

لكنّ محسن اطيمش ضاع مني في الطريق ما بين «الفيشاوي» و«زقاق المدق» في طريقه إلى «طلعت حرب».. ربما افترض أنّ الفيشاوي مساحةُ سِلْمٍ للتفاوض. وما إنْ راح إلى «طلعت حرب» حتى أخذتْه الحمّى وصار يحارِب في تيهٍ لا حدود له. رأيته بعد نصفِ ساعة، فسلّمني أمره حتى باب البيت.. هناك ـ ودون أن يدري بما جرى ـ صار يبكي البلادَ التي دخلتْ حربَ الأيام العشرة. (أما قالها ذلك الغريبُ الأشعر الذي اختفى ولَمْ نصدِّقْ أمره).. وبينما كنا في طريقنا إلى دموع أكثر، شاهدْنا «فيفي عبده» في إعلانات «الفهد» وهي مازالت ترقص، وما كفّ «شفيق جلال» عن الغناء في كاباريه «الأريزونا»، حتى إننا لم نعرف مَنْ ألْصقَ تلك الصورةَ على جدار شقتنا وهي محضُ رسمٍ كاريكاتيريٍّ لحمارٍ يحمل كنزاً، وصاحبُه يضربه على مؤخرته وهو يصرخ به:

ـ أيها الحمار، أيها الحمار، إلى متى نحمل الكنوز ولا شيء لنا منها؟!

*

في الثانية قرب الصباح، إذاعاتُ العالم نَقَلَتْ بعضَ ما جرى على سطوح المنازل في الحلة والبصرة وبغداد، زدْ على ذلك ما جرى في «العشار» أو لِصقَ جزيرة «السندباد».. هرب السندبادُ البحريُّ من أول صاروخٍ بريّ وتبرّأ من تاريخه المجيد. كيف ترانا نصدِّق عفواً أنّ الحرب يمكنها أن تدوم أكثر من تسعة أيام كما قالَ ذلك المخبول؟

سكت التلفزيون المصريّ لحظةً، ثم عاد إلى بثِّ مفكك عجيبٍ لم نتكهن أسبابه، حتى راح يقول بصوتٍ حياديّ يشبه الهمسَ:

ـ يبدو أنّ العراق يدخل حرباً لا يعرف غيرُ اللّه متى ستنتهي.

محسن اطيمش وأنا ـ فقط ـ كنا ندري أنها لن تستمرَّ أطولَ من عشرة أيام، وهذا يعني خرابَ الروح وخرابَ البصرة معاً.. ربما سيموت منا أكثرُ من ألف شهيد، وقد نَخْسر بضعَ مئاتٍ من آلاف الدولارات.

صرنا بعد الثالثة فجراً نهذي بكلام لا يفهمه أحد، نحتسي هذا الشيء الذي يُشْبه النبيذَ، نصغي إلى أخبار واشنطن وباريس، وقبل أن يَجْرفنا الحنينُ إلى اللوعة والصراخ والنحيب، نعود معاً لنشرب ذلك النبيذ، حتى نوشك أن نسقط عن قشعريرةٍ تسرَّبتْ إلى بكتريا القلب ـ هكذا ـ دون وعيٍ بما نحن فيه وما انتهينا إليه. نام

صديقي على مَجْمرة من دموع، وأنا وحدي بقيتُ أصغي إلى كلماتٍ لا أفهم معناها ولا يمكن أن يَنْطق بها شبحٌ أو إذاعةٌ أو خرتيت. ماذا يَجْمع بين شعر الكلب وذخائر الفرسان السود؟ ماذا يجمع بين دجّالٍ يشتري الدينَ بأموال النفط وحماية الكرسيّ بآية الكرسيّ؟ ماذا تعني حيّاتٌ بحرية مع أخرى تأتي من شواطئ كوالا لامپور؟ الثمن مدفوع لمن؟ وهناك مَنْ يتسلّم الفواتير عن طريق لوزان وقبرص؟ لا شكَّ أنّ النبيذ الذي نشربه أقوى من خلايا جلودنا ومساماتها.. إذ لم تعد لتلك المفردات من معنى. سقط الليلُ في النهار، ورأيتُ نفسي في الصباح أسمع أطفالَ الجرائد يكررون خلف شرشف الفراش: «**أهرام، جمهورية، أخبار اليوم**».. مددتُ أصابعي من شبّاكٍ في الروح واشتريتُ **أهرامات** الجيزة و**جمهورية** مصر و**أخبارها**، ولم أعثر على أسماء الجثث التي غادرتنا، لم أعرف مَنْ عاش ومَنْ سقط، ذلك أنّ محسن اطيمش لم يزل في فراشه ما بين الحياة والموت، لم أستطع إيقاظه ـ فوراً ـ لئلا يصدق أنّ ما جرى بالأمس إنّما جرى حقاً.

رحتُ أقرأ الجرائد من ذيلها، لا أريد اكتشافَ ما حلّ بنا. اكتفيتُ بأخبار نبيلة عبيد التي سافرتْ إلى باريس، وباكتشاف نجمةٍ في الطرب اسمها ميّادة الحنّاوي. لكنّ أصابعي وصلتْ إلى الصفحات الأولى برغم أنفي، ورأيتُ.... الفخَّ المنصوبَ على جبلٍ من الجليد، رأيتُ ما أعرفه وما لا أعرفه، سقط القلبُ في لجّةٍ من البلاهة، واختفى نبضُ القلب في طيات دمي.

مررتُ على نفسي في طريقي صوب غرفة ذلك الصديق النائم، قلتُ له: «ألا تصحو يا محسن»؟ ثم مضيتُ وحدي إلى **أخبار اليوم**، عساني أفهم شكلَ الموت الذي رموه على وطني.. لكنني لم أعثر على اسمٍ أعرفه أو جسرٍ مشيتُ عليه أو امرأةٍ أحببتُها ذاتَ مرة. الجرائد المصرية لا تدري أيَّ شيء عن مقاهينا وبيوتنا وأحلامنا التي ما تحققتْ أبداً. لهذا رأيتُني أمشي خارج أسواري أفتِّش عن عراقيٍّ واحدٍ يدري ما حلّ بنا، فما رأيتُ غيري. ولذلك قررتُ أن أعود، حتى أرى سمائي وأقرأ لحمي وأصدِّق ـ عفواً ـ أنّ أولادي على قيد السلامة وقيد انتظاري.

شكوتُ أمري إلى صمت عميق. لا أحد يدري ما حلّ هناك، وما حلّ بي لا أحد يعلم به. كنتُ ألوذ بضوء الشوارع في «الزمالك» من ظلمةٍ تسللتْ صوب أهلي حتى أصابت شارعَ الأميرات بنومٍ أخرق. أَخْجل من بقائي تحت سقفٍ من الأغنيات البلهاء، وأقول: «متى يصحو محسن حتى نعود معاً إلى صافرات إنذارنا؟ وإذا لم يكن من أحدٍ يحكي عما جرى في أزقة الكرخ والرصافة، فلماذا لا يشاركنا الوهمَ في صافرةٍ نسمعها ـ هنا ـ ولو لمرة واحدة حتى نصدّق أنّ العروبة إنما تعني العرب»؟

كنتُ أحتسي همومي مع «مَزّة» من العرق الزحلاويّ، جئتُ به من هناك حتى أتذكر ما جرى في زحلة ورام اللّه وعين الحلوة. لكنّ الوقت غازلني بعد منتصف الزجاجة وأرغمني على الغِناء. لم أفهم نصفَ ما جاء في أغنيتي إذ غطّاها الدمعُ النازلُ من خصاص الروح. ثم رأيته يجلس لصقي بعد نومٍ دام أكثر من صبري. قلتُ له: «يا محسن، يبدو أنّ الحرب قد تطول، وربما كان الغريبُ على حقٍّ، فأنا أَشعر أنها ستأخذ من أعمارنا أكثر من سبعة أيام، وهذا يعني خرابَ البصرة مرتين».

قال محسن:

ـ اطمئنَّ، الحروبُ لن تستمرَّ أكثرَ من يومين، ومادامت الليلة الأولى قد انتهت فهذا يعني كما ترى...

أظنني رحتُ أصرخ به:

ـ أنت وحدك أمضيتَ في النوم أكثرَ من يوم واحد. كنتُ أنظر إليك وأنتَ على فراشك تهذي وتقول «بغداد»، بينما كنتُ أجلس وحدي أسمع أخبارها من هنا وهناك. كنتُ أحرس نومك يا محسن لئلا تسمع ما أسمع.

خرجنا في منتصف الليل، لا ندري إلى أين.. شربنا القهوة في «الكوزموپوليتان» ثم اشترينا **الأهرام** بسعر التراب. عدنا إلى جحيم الأخبار، نسمع موتانا وهم يلهثون على السواتر. جئنا بالزحلاوي يَسْتر عوراتنا (هل نعود؟ وإذا عدنا، ماذا ترانا سنفعل؟ وإذا لم نرجع، ماذا سنفعل في مصر؟).

كان الفجر قد اقترب..

لم نستطع الصبر على بلوانا. حقائبنا الصغيرة تحدِّق فينا، كنا ننظر صوبها بكثير من الخوف، بقليل من

الشوق.. ليس من أحد يفهم الحال التي نحن فيها؛ إنه الصراط ما بين الرمضاء والنار. وبرغم ذلك رحنا نصغي إلى صوت ذلك المخبول:

ـ عشرة أيام هي الحرب، ولن تكون أقصر من ذلك.

*

أتذكّر الآن، كما لو أنّ الأمر جرى منذ لحظة.

أتذكّر تماماً، كما لو أنّ الأمر جرى. منذ برهة، أنّ الحرب ـ ونحن ـ دامت أكثر من عشرة أيام فعلاً.

ليس من شيء غريب فيما جرى... سوى أننا ـ محسن وأنا ـ عدنا إلى «مقهى الفيشاوي» في السنة السابعة من القتل، بفارقٍ أننا لم نعد نقرأ **الأهرام** ولا **أخبار اليوم** ولا **الجمهورية**.. صارت الحرب ـ على ما أتذكّر جيداً ـ محضَ موضوعٍ يأتي في أول المساء، ثم ينسكب في قعر كؤوسنا ـ سهواً ـ عند أول المساء، ومع أول رشفة بعد غروب الشمس. كُنا نغنّي، ونضحك، نغني ونضحك من ذلك الغريب الأشعر الذي أدرك أنّ الحرب قد تستمر أكثر من تسعة أيام. أية معجزة أن يكتشف محضُ غريبٍ مخبولٍ أنّ الحرب حقاً ستدوم أكثر مما نحتمل؟ ونضحك، نغنّي ونضحك.. لذيذٌ هو الضحك حقاً إذا ما تعلّق برجلٍ كهذا، يكشف النقابَ عن المستحيل وهو على باب اللّه!

بغداد

* دامت الحرب، كما هو معلوم، أكثر من ٢٨٨٠ يوماً.

** محسن اطيمش: شاعر وناقد عراقيٌ معروف، توفي منذ أربع سنوات في بغداد.

شتــــاء بلا مطر

مهدي عيسى الصقر

يا لَهَشاشة هذا الجسدِ الذي يضمّ روحَك اللائبة! أنتَ لستَ سوى كتلةٍ ضئيلةٍ من اللحم والعظام تتداعى، في لحظة، ما إنْ يختلّ قليلاً مجرى الدم في العروق. تُرى ما الذي أصابكَ بغتةً!؟ حتى الجلوسُ على الأرض ما عدتَ تَقْوى عليه... تستلقي، مثل خرقةٍ مهلهلةٍ، على الإسمنت البارد، في محطةٍ للحافلات، وحيداً، مهجوراً، وسط اللغط والزحام. ماذا جئتَ تفعل هنا!؟ السائقُ ظنَّكَ نائماً. رآك ملموماً على نفسكَ، جالساً في مقعدكَ، في نهاية الحافلة، بعد أن فارقها المسافرون، عيناك مغمضتان، ورأسكَ يستند إلى حافة النافذة، فظنّك نائماً. «أخي وصلنا!»، صاح من مكانه يوقظكَ من نومٍ توهَّمَه. «هذه هي العاصمة!». نعم، هذه هي بعينها، وأنت ترقد الآن على أرضها العارية، لا تستطيع أن ترفع جذعَكَ المتهافت. تفتح عينيْك، تنظر إلى الوجه الحائر، أصبح الآن معلّقاً فوق رأسِكَ. «أنا تعبان!». يعاونك سائقُ الحافلة على النزول: «أتريدني أن آخذك إلى بناية المسجد القريب، لتستريح هناك؟». تروقُكَ الفكرةُ، إلا أنّ ساقيْك ما عادتا تطاوعانك: «لا، أنام هنا». يفتح جفنيْه، يلمح وجوهاً، مبهمةَ الملامح، تموج في فضاءٍ كابوسيٍّ معبّأٍ بالدخان، واللغطِ، وهديرِ المحركات، ووقع الأحذية المسرعة على الأسفلت، ورائحةِ وقودِ الحافلات، ومطّاطِ الإطارات الساخنة، بعد المسيرات الطويلة، على الطرق البعيدة، في حين كانت مصابيحُ النيون المثبتة في السقوف ورؤوس الأعمدة تنشر ضوءها البارد في الساحة الشاسعة. «ولكنْ أين تنام هنا.. وسط حركة الناس والحافلات!؟». يَدُ السائق ما تزال تمسك بذراعه بقوة، تساعده على الثبات. ولكنْ أهكذا يتهاوى بنيانُك، الذي توهّمْتَهُ متيناً!؟ «أنام على الأرض». ثمة شحّاذ يصيح، فوق الضجيج، يلتمس الإحسانَ من العابرين. أنتَ أيضاً غدوتَ شحّاذاً مثلَه، لكنكَ لا تريد الخبزَ وحده. قالت لك هي، بين جدران البيت، وطفلُكما يستريح على ذراعها: «افعلْ شيئاً، ألستَ ربَّ العائلة؟». ضحكتَ، وقلتَ لها: «لا ربٌّ غير الرب!». فتأمّلَتْكَ وكأنّكَ إنسانٌ معتوه. نعم، هي على حق، فأنتَ إنسانٌ معتوه، وإلا لَمَا ركبتَ الحافلة، وقدمتَ إلى العاصمة. ولكنني ما كنتُ أَعلم أنّ هذا الجسدَ الملعونَ يخذلني، وأنا بعدُ في الطريق.